نقد الأسس العلميَّة لقضيَّة إنكار وجود اللّه في الإلحاد المعاصر -نظريَّة التطوّر أنموذجًا-

الشيخ ياسر بشير

طالب في مرحلة الماجستير في اختصاص علم الكلام في جامعة المصطفى العالميَّة

ملخّص

عرضت هذه المقالة لنظريَّة التطوُّر موضِحَةً أركانها الثلاثة؛ الأوَّل: هو الطفرة الجينيَّة التي تحصل عند جميع الكائنات الحيّة والثاني: هو البقاء للأصلح أو الانتقاء الطبيعيّ والثالث: هو التناسل والتَّكاثر الذي يضمن انتقال هذا الجين الجديد إلى الأجيال اللاحقة. ومن ثَمَّ عرضت المقالة لإشكالات ثلاثة كان لها الدور الكبير في توضيح النظريَّة.

ومن ثَمَّ عرضت المقالة لأهم الروايات حول الخلق الدفعيّ عند مختلف الأديان؛ فاليهوديَّة قالت بالخلق الدفعيّ, وحددت زماناً لبداية الخلق، وكذلك فعلت المسيحيَّة لاعتقادها بالعهد القديم، أما الديانة الإسلاميّة فظاهرها القريب من النص بأنَّ الإنسان خُلِق على شاكلته الحالية منذ خلقه الله, سبحانه وتعالى.

وتمَّ كذلك التعرض للمنهج الذي طُرح في علم الأصول وعلوم القرآن حول التعامل مع النص الدِّينيّ، وتمَّ التفريق بين الظاهر والنصّ، وكيفيَّة التعامل مع كلّ منهما؛ وخلص البحث إلى النتيجة التي تقول :إنَّ ظاهر النصوص الدِّينيّة الإسلاميّة تتحدث عن الخلق الدفعيّ، ولا يمكننا التنازل عن هذا الظهور إلا حين يقوم دليل قطعيٌّ يعارضه.

الكلمات المفتاحية:

نظريَّة التطوُّر، الانتقاء الطبيعيّ، الأصلح، الظاهر والنص، الخلق الدفعيّ.

■ نظريَّة التطوُّر

اقتضت الضرورة أن يخوض العالم والباحث الإسلاميّ في مسائل ونظريَّات بعيدة عن دائرة اهتماماته وبحثه بدءاً، لكنّ التأمّل البسيط يوصل إلى أنّ الاطلاع على مثل هذه النظريَّات أصبح من الوظائف الأساسيَّة لمن أراد أن يردّ الشبهات على وجوده، سبحانه وتعالى، فمنطلقات الإلحاد لم تعد فلسفيَّة فقط، بل تعدّتها إلى كثيرٍ من الجوانب؛ فمنها الفقهيَّة (كقضايا حقوق المرأة, ولا سيما, الإرث والحضانة...) ومنها العلميَّة كنظريَّة التطوُّر.

تحتوي الخلايا على نواة تستقرّ فيها الكروموسومات، التي تحفظ بداخلها جينات الكائن الحيّ، ومن ثَمَّ كلَّ مواصفاته الظاهرة وغير الظاهرة. والخلايا لا تتكون إلا من خلال أخرى موجودة بالفعل، وذلك من خلال نسخ الخليَّة الأم لكل كروسوماتها (روبير، 12)، ومن ثَمَّ تنقسم إلى خليَّتين كل منهما يحتوي على نسخة من كروموسومات الخليَّة الأمّ.

ويحتوي الكروموسوم الواحد على مجموعة كبيرة من الجينات (روبير، 17) ، وهذه الجينات تتألّف من كدونات (روبير، 21) ، والكودون يتألّف بدوره من ثلاثة نوكليوتيد (روبير، 19). أما النوكليوتيد فهو عبارة عن أربعة عناصر فقط اصطلحوا عليها بالأسماء التالية (A-T-G-C)، ويتغيّر الكودون بحسب ترتيبها، وبالتبع يتغير الجين. وعليه يمكننا الحديث عن أركان نظريَّة التطوُّر الثلاثة:

أولاً: الركن الأوَّل: الطفرة الجينيَّة

تحصل الطفرة الجينيَّة بحصول خللٍ في نسخ الخليَّة، والخلل يحصل من خلال زيادة نوكليوتيد أو نقصانه، أو بأن يتبدّل مكانه مع نوكليوتيد آخر. فقد قلنا :إنَّ كل ثلاثة نوكليوتيدات تؤلّف كُدوناً واحداً (مثلاً ATG أو CGA)، ولنفترض أنّ سلسلة مرتّبةً على النحو التالي: (ATG TGC CAT GTC ...) دخل عليها حرف واحد زائد فإنَّ ترتيبها سيتغير وذلك لأنَّ كل 3 حروف تؤلف كُدوناً

فمثلاً لو زدنا نوكليوتيد A في أول السلسلة فستصبح على النحو التالي (AAT GTG CCA TGT C..)، وعليه سيتبدّل معنى السلسلة كلّها.

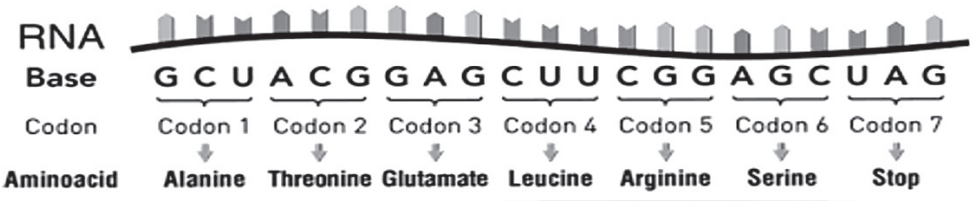

إذاً، إنّ أيَّ زيادة أو نقصان أو تغيّر في ترتيب النوكليوتيدات سيترك أثرًا في عددٍ من الكُدونات، ومن ثَمَّ سيترك أثراً في جينات الإنسان أو أيِّ كائن حيّ.

ثانياً: الركن الثاني: البقاء للأصلح والانتقاء الطبيعيّ

وهذا ركن أساسيٌّ من أركان نظريَّة التطوُّر، ومعناه أنّ الطبيعة نتيجةً لكل العوامل التي تحيط بالكائن الحي تختار الأصلح للبقاء، أي أنَّ الأقدر على البقاء سوف يكون له فرصة أكبر من أقرانه لأن يبقى حيًّاً, وأنْ يتكاثر ويُوَرِّث جيناته إلى الأجيال اللاحقة. ولداروين تعبير في هذا السياق «وقد يقال على سبيل المجاز: إنَّ الانتقاء الطبيعيّ دائم التنقيب كل يوم وكل ساعة، في جميع أرجاء العالم، بحثاً عن أكثر التمايزات بساطة، لافظاً ما هو رديء منها، ومحتفظاً ومدَّخراً لكل ما هو جيد، عاملاً بصمت وتمهل، كلما تلوح له الفرصة، على إدخال التحسينات على كل كائن عضويّ فيما يتعلق بظروف حياته العضويّة وغير العضويّة» (داروين، 175).

وملاك كون الصفة إيجابيَّة أو سلبيَّة، هو مقدار تناسبها مع مجموع الظروف التي يعيش فيها الكائن الحي. فقد يكون الطول مفيداً للزَّرافة التي تأكل الغذاء من الشجر العالي، وقد يكون سلبياً لبعض الحيوانات التي تريد أن تختبئ هروباً من الحيوان المفترس. ويحضرني هنا بيت الشعر الذي يقول:

يا أيها الحاجب المعوجّ لو كنت جالساً لكنت أعوجْ

ثالثاً: الركن الثالث: التناسل والتكاثر

الركن الثالث هو: التناسل، لأنَّ الطفرة الجينيَّة لو حصلت ولم تُمرّر للأجيال اللاحقة فإنّها

ستموت بموت حاملها، فحتى لو كانت الصفة أنسب للبقاء ضمن الظروف المحيطة، فهي تحتاج للتناسل حتى تُنقَل إلى الأجيال اللاحقة، ومن ثَمَّ لتُحفظ. يقول داروين في هذا الصدد «أيُّ تمايز لا يتمُّ توريثُه لا يمثِّل لنا أيَّ أهميَّة» (داروين، 174).

مثال توضيحي[1]:

لنفترض أنَّ كلَّ دببة القطب الشماليِّ كانت بلون واحد فقط هو البني مثلاً، ونحن نعلم أنّ موارد الغذاء محدودة في القطب الشمالي، ولنفترض أنَّها تكفي لـ1000 دب فقط، فإنّ هذه الدببة سوف تتصارع على الغذاء دائمًا، وسيبقى العدد ثابتاً على ما يقارب الـ1000 دب. ومن سيبقى على قيد الحياة هو صاحب الحظ الأكبر في البقاء.

ثم فلنفترض أنَّه في يوم من الأيام وُلد دبّ أبيضُ نتيجة حصول طفرة جينيّة في الجين الخاص بلون وبر الدب. فإنه سيصبح لدينا 1000 دبّ بنيّ وواحد أبيض، سيتنازعون على مصادر الغذاء المحدودة من أجل البقاء. فإنَّ هذا الدبَّ أمام خيارات ثلاثة:

- أن يموت قبل بلوغ سنّ التزاوج، ومن ثَمَّ فإنَّ هذه الطفرة الجينيَّة ستزول وتُنسى بموته.
- أن يبقى حيّاً إلى سن التزاوج ولكن لا ينقل هذا الجين الجديد لأولاده، ومن ثَمَّ فإنَّ هذا الجين أيضاً سيصبح نسياً منسيّاً.
- أن يبقى حيّاً ويُمرِّر هذا الجين الجديد إلى نسله القادم.

ومن المعلوم أنَّ القطب الشمالي ممتلئ بالثلج، وأنَّ اللون الأبيض هو الطاغي هناك، ولذلك فإنَّ من يمتلك وبراً أبيض سيستطيع التكيُّف مع البيئة المحيطة أكثر، وعليه سيكون حظّه في الاصطياد أوفر من غيره، لأنّه يستطيع التخفّي عن فريسته، ومن ثَمَّ فإن فرصه في تأمين الثبات الغذائي أكبر؛ وعندما سيزداد عدد الدببة سيكون هو الأوفر حظاً بينها، وسيكون احتمال نفوقه جوعاً أقل منها، وعندما يحين موعد تزاوجه ففي حال مرّر هذا الجين الجديد إلى أبنائه، فسيحظى نسله بفرصة كبيرة للنجاة كما كانت لأبيهم. ومن ثَمَّ ومع مرور الزمن ومع تمرير هذا الجين الجديد وسيزداد عدد الدببة البيضاء، وسينقص عدد تلك البنية، إلى أن نصل إلى مرحلة تصبح الدببة الـ1000 كلهم بيضاء اللون، ولكن ذلك يحتاج لفترة طويلة قد تمتد لعشرات آلاف السنين.

---

1 - لم نهدف من طرح المثال إثبات النظرية بل توضيح العلاقة بين أركانها الثلاثة.

رابعاً: إشكالات حول النظريَّة

سـنعرض لثلاثة إشكالات أساسـيَّة على النظريَّة؛ لما للإجابة عنها من أثر في توضيح النظريَّة بشكل أكبر.

1. النقد الأوَّل:

كيـف يُعقل أنْ ينتج عن كائن أقلَّ تعقيداً آخر أكـثر تعقيداً؟ بمعنى آخر كيف يمكن أنْ يصدر كائن أكمل من آخر أقلَّ كمالاً؟

وعمـدة الجـواب هي في تحديد مـلاك الأفضليَّة. فما تـراه أنت أفضل لا تنظـر الطبيعة إليه كذلـك أبداً، بل الطبيعة تنظر إلى الكائنات الحيَّة فتختار منها الأصلح بطريقة غير واعية. فليس الطول أفضل من القِصر, وليسـت الضخامة أفضل من الصِغر، بل العبرة كلُّ العبرة في التناسب مـع الظروف الطبيعيّة. فإذا اتَّضح هذا الأمر، يمكن القول: إنَّ الكائن الذي تراه أنت أكثر تعقيداً أو أكـثر كمالاً هو نتيجة تراكم الطفـرات الجينيَّة التي كان لها حظّ من البقاء مع مرور الزمن عبر الانتقـاء للأفضل، ففي كل مرّة كانت تتمكن إحدى الجينات من أن تصمد عبر الأجيال ثم يأتي جينٌ جديد، وهكذا ... إلى أنْ وصل الأمر إلى الكائن الذي تراه أنت الآن.

ومن ثَمَّ ليس هنالك صفة أفضل من أخرى، وأيضاً لم يصل الكائن الطبيعيّ إلى مرحلة متقدّمة من التعقيد بقفزة تطوُّريَّة واحدة.

2. النقد الثاني:

لماذا لا نرى كائنات حيّةً تتطور في أيامنا لتصبح كائنات أخرى؟

إن التطوُّر يحصل على نحوٍ بطيء نسبياً لذلك لا نلاحظ التغيّر. وإنّ أي تغيّر يسير في الكائن الطبيعيّ لا يكون كافياً عادة لتشكيل نوع جديد، بل سيجعل الأمر على النحو التالي: النوع السابق مع إضافة صفة معينة كتغيّر اللون أو شـكل الأنف أو طول الظفر، وهذا الفرق الجديد سـيورّث إلى الأبناء، الذين سيبقون ضمن النوع السابق نفسه.

ثم بعد سنين ستحدث طفرة جينيَّة جديدة ومن ثَمَّ ستزيد الفروقات، من واحد، فاثنين، فثلاثة (داروين، 175) ، فعشرةٍ بعد آلاف السـنين. ومن ثَمَّ بعد ملايين السـنين ستكون هذه الفروقات قد زادت في الحيوان الجديد ومن ثَمَّ سـيكون مختلفاً على نحوٍ كبيرٍ عن أبناء عمومته من جدّه البعيد. وسيصطلح البشر على هذا الحيوان الجديد باسمٍ جديدٍ. ومن ثَمَّ من يعيش الآن في القرن

الواحد والعشرين لن يشاهد إلَّا هذا الحيوان الجديد (دوكينز، 76).

ولتوضيح الأمر يمكن القول: إنَّ الفرق بين الأب وابنه الذي حصلت معه الطفرة يسيرٌ جداً، وهو أشبه باختلاف درجة اللون الواحد، ففي اللون الواحد هناك عشرات أو مئات الدرجات إلى أن يصبح لوناً آخر بعد التبدّل الكبير، ولكن لن يتمكّن الناظر من تحديد حدّ دقيق لنهاية اللون وبداية اللون الآخر؛ فاللون الأصفر غير الأخضر. ولكن هناك درجات من الأصفر ومن الأخضر من الصعب جدًّا أن تحدّدهما مباشرة[1].

وعندما يشتد الاختلاف كثيراً سنرى أنَّ اللون قد اختلف جذريّ,أوتحول إلى لون آخر، لذا يمكن القول: إنَّ الإنسان لا يرى تطوُّراً في حياته -عادةً[2]- لأنَّ فترة حياته قصيرة لا تتعدى المئة سنة, وهي غير كافية لحصول عدد كبير من التغيرات الجينيَّة لكي يخرج الحيوان من نوع إلى آخر.

يقول دوكينز:

«هناك إذن فارق كبير بين الانتخاب التراكميّ (حيث يُستخدم كل تحسين مهما كان صغيراً، كأساس للبناء في المستقبل)، والانتخاب بخطوة واحدة (حيث كلُّ محاولة جديدة هي محاولة حديثة). ولو كان على التقدم بالتطوُّر أن يعتمد على الانتخاب بالخطوة الواحدة، لما وصل إلى شيء...» (دوكينز، 81).

3. النقد الثالث:

كيف تختار الطبيعة غير العاقلة الأفضل ليبقى على حساب باقي أفراد النوع؟ أليس من البديهيّات أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه؟ وغير العاقل لا يملك الحكمة والإبداع فلن يفعل الأفضل.

---

1 - فلو كان عندك وعاء فيه طلاء برتقالي، فإنك لو أضفت له القليل من اللون الأخضر سيبقى برتقالياً؛ ولكن إذا استمررْت في إضافة اللون الأخضر له شيئاً فشيئاً فستصل إلى مرحلة برزخية يصبح اللون بين البرتقالي والأصفر, ولن تستطيع أنْ تحكم عليه مباشرة. ثم بعد ذلك لو أضفت المزيد ستصفه بالصفرة بسهولة. وفي حال استمررْت في إضافة اللون الأخضر ستصل إلى مرحلة يتبدّل معها اللون من الصفرة ليصل إلى مرحلة برزخية بين اللون الأصفر والأخضر، إلى أن يصل إلى مرحلة يصبح تشخيصه سهلاً جداً فيكون أخضرً.

2 - أشدّد على كلمة «عادةً»، لأنَّه مع الحيوانات ذات الأعمار القصيرة (كالحشرات...) يمكن ملاحظة التغيُّر بشكل واضح. لأنَّ بعض الحشرات تحتاج ليوم واحد حتى تنتج جيلاً جديد؛ وبعد عشرين عامًا سيكون قد مرّ 7035 يومًا, وبالتالي 7035 جيلاً، فتصبح احتمالية تغيُّر عدة جينات كبيرة نسبياً.

إنَّ عمليَّة الانتقاء لا تتمُّ على نحوٍ مدروس من قبل الطبيعة[1]، بل إنَّ المخلوق الذي يستطيع أن يتكيّف أكثر له حظٌّ أكبر في البقاء، فعندما نقول: إنَّه انتخاب غير عشوائي فإنَّنا لا نعني أنَّه عاقل، بل نقصد أنَّه يتمُّ وفق قانون.

ثم إنَّ لداروين كلاماً يوضّح فيه كيف أن الطبيعة تنتقي الأفضل، ويتحدث عن زوال الصفة غير المناسبة:

« إنَّنا بالكاد نعرف أيَّ شيء عن الأصل أو التاريخ الخاصِّ بأيٍّ من سلالاتنا الداجنة، ولكنْ في الحقيقة فإنَّ السلالة هي مثل لهجة في إحدى اللغات. ومن الصعب أن توصف بأنَّ لها أصلاً منفصلاً. فالإنسان يحتفظ ويستولد من فرد به بعض الانحرافات البسيطة في التركيب، أو يولي عناية أكبر من المعتاد في تزويج أفضل حيواناته، وهو من ثَمَّ يعمل على تحسينها، وهذه الحيوانات المحسنة تنتشر ببطء في المناطق المجاورة المباشرة، ولكنه من الصعب أن تطلق عليها أسماء خاصَّة بها في هذه المرحلة، ولكونها ما زالت غير مقدرة إلا على نحْوٍ بسيط، فإنَّ تاريخها سوف يتمُّ إهماله. وعندما يجري تحسينها إلى حدٍّ أكبر بنفس العمليَّة البطيئة المتدرِّجة، فإنَّه من المتوقَّع أنْ يزيد انتشارها، ويُعترَف بها على أساس أنها شيء خاصٌّ منفصل وثمين، وعندئذ فغالباً ما قد يُطلق عليها اسماً إقليميّاً لأول مرة»(داروين، 112).

وعليه يمكننا القول بأنّ النظريَّة أصبحت واضحة ويبقى أن نشير إلى أنّ النظريَّة تعالج أمرين:

1 - أصل إمكان حصول التطوُّر بين الأنواع أو داخل النوع الواحد، وهو أمرٌ ممكن كما تبيَّن لنا.

2 - تتبّع تطور الكائنات الطبيعيّة وإرجاع الأنواع[2] الموجودة إلى أخرى سابقة، ومن ثَمَّ رسم شجرة للكائنات الحيّة.

---

1 - نعم نحن –المتديّنين- نقول: إنَّ كل شيء يتم بتقديرِ الله, سبحانه وتعالى، فحتى لو صحّت هذه النظرية فإنَّنا نعدُّها من إبداعات الله سبحانه وتعالى. لذا يجب على القارئ أن يشخص محل النزاع في البداية، ألا وهو: هل عملية التطوّر مستحيلة أم لا؟ وإذا لم تكن مستحيلة فما هي آثارها؟...

2 - لم نتعرض للبحث حول حقيقة النوع رغم أهميته في المقام لأن المجال لا يتّسع لذلك. ولكن يمكننا القول بأن علماء الأحياء عندما يستعملون لفظ النوع فهم غافلون تماماً عن النوع المنطقي المؤلّف من الجنس والفصل، وبالتالي لا يرد الإشكال القائل: كيف للفصل -وهو ذاتي بالنسبة إلى النوع- أن يتحوّل إلى فصلٍ آخر؟

■ رواية خلق الإنسان عند الأديان التوحيديَّة الثلاثة ومعارضتها للنظريَّة

تحدثنـا عن أمرين مهمّين تعالجهما النظريَّة، وقلنا أن أصل حصول التطوُّر أمرٌ واقعيٌّ حاصلٌ لا نقاش فيه، ولكن رسم شجرة التطوُّر فلم يكتمل حتى الآن وما زال يحتاج للكثير من العمل من قبل علماء الأحياء. والمهّم في المقام أن نشير إلى أنّ البحث هنا يتمحور حول الأمر الثاني، لأنّه -وكما سـيتضح- فإنّ أي معارضة مفترضة بين النظريَّة والرواية الدِّينيّة للخلق، لا تكون متصورة إلا عندما نتحدّث عن شجرة الموجودات الحية على وجه الأرض.

عندما نتحدّث عن تعارض النظريَّة مع الوجود الإلهي، سبحانه وتعالى, فتارة نحن نتحدّث عن معارضتها لأصل وجود الإله، وهذا من غريب القول لأنّ النظريَّة يستحيل لها أن تنفي وجود الإله، فهي لا تتحدّث سوى عن كيفيَّة تطور الأنواع بعضها من بعض؛ وأيّ علاقة بين أصل وجود الإله وبين حصول التطوُّر في الخارج؛ فحتى لو استطاعوا إرجاع الكائنات جميعاً إلى كائنٍ واحدٍ تبقى أجنبية عن الإجابة عن السـؤال حول وجود الله, سبحانه وتعالى. نعم يمكن للنظريَّة أن تعارض الرواية الدِّينيّة لخلق الإنسان؛ وتوضيحه: لو تمكّن علماء الطبيعة من إرجاع الإنسان إلى كائنات أخرى أقلَّ تطوراً منه، فماذا سيكون موقف الأديان حينئذٍ؟

وهنا يأتي الإشـكال لأنَّ الأديان تتبنّى رواية الخلق الدفعيّ للإنسان وفقاً للنصوص الموجودة بين أيدينا. ولذلك لا بدّ لنا من التعرض أولاً لآراء الأديان السـماويَّة الثلاثة حول خلق الإنسان، ومن ثَمَّ نذهب لنبحث كيفيَّة التعامل مع النصوص الدِّينيّة فيما لو صحّت النظريَّة.

أولاً: الديانة اليهوديَّة والمسيحيَّة

جمعنا بين الديانة اليهوديَّة والمسيحيَّة لأنّ الديانة المسيحيَّة تعترف بالعهد القديم ككتابٍ مقدّسٍ عندها، ورغم النقاش الموجود في العديد من أسفار العهد القديم بين كلٍّ من الطوائف المسيحيَّة إلّا أنّهم جميعاً يعترفون بالتوراة كتابًا سـماويًّا (الرهبانية اليسـوعية، العهد القديم، 47-56)، ومن ثَمَّ يمكننا الاعتماد على الأسفار الأربعة للتوراة على أقل تقديرٍ باعتبارها تمُثِّل المسيحيِّين أيضاً. وفي هذا المقام يمكننا الحديث عن طوائف ثلاث من النصوص في كلا العهدين:

1. الآيات التي تتحدّث عن عزّة الإنسان:

تذكر آيات التوراة أنه «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلق، ذكراً وأنثى خلقهم»

(سـفر التكوين الإصحاح1: 27)، فكلا الجسـنين على صورة الله، سبحانه وتعالى، والله جميل كاملٌ عزيزٌ، ومن ثَمَّ فمن المستحيل أنْ يكون الإنسان قد تطور من مخلوقٍ وضيع وإلا فنكون قد نسبنا الضعةإلى الله سـبحانه وتعالى، وقد ورد في العهد الجديد: «فتَلبَسوا الإنسان الجيد الذي خُلق على صورة الله في البرّ وقداسة الحق» (رسالة إلى أهل أفسس، الإصحاح4: 24)

2. الآيات التي تتحدَّث عن الخلق الدفعيّ من التراب:

تتحـدث التوارة عن بدايـة الخلق، والإصحـاح الأوَّل كلّه معقودٌ للحديـث عن ترتيب خلق الكائنات الحيّة، فالله عندهم قد خلق الماء واليبس ثم الطيور والسمك ثم الدواب ثم بعد ذلك الإنسان (راجع سـفر التكوين، الإصحاح الأوَّل)، ومن ثَمَّ إنّ أي نظريَّة تعارض هذا الطرح كأن تقـول بأن الطيور بعد الدواب مثلاً، فهي مخالفة لصريـح العهد القديم. وجاء في التوراة أيضاً: «وجَبَلَ الربُّ الإله الإنسانَ تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار الإنسان نفساً حيّةً» (سفر التكوين، الإصحاح2: 7) و «وجعل هناك الإنسان الذي جبله» (سفر التكوين الإصحاح2: 8) وكلّها نصوص ظاهـرة في الخلق الدفعيّ من التراب، ومن الصعب جداً القول بأنّها في مقام الإخبار أنّ الإنسان أصله من التراب بينما هي ساكتة عن كيفيَّة خلقه؛ فالآيات تتحدَّث عن جبلِ الإنسان من التراب «فيعود التراب [المقصود: الإنسان] إلى الأرض حيث كان ويعود النفس إلى الله الذي وهبه» (الجامعة، الإصحاح 12: 7) وأيضاً «... من الطين جئت أنا أيضاً» (سفر أيوب، الإصحاح33: 6).

ثم إنّ الحيوانات والطيور أيضاً من الأرض أيضاً «وجعَلَ الربُّ الإله من الأرض جميع حيوانات الحقول وجميعَ طيور السـماء وأتى بها الإنسانَ ليرى ماذا يسمّيها» (سفر التكوين، الإصحاح2: 19)، بـل إنّ «كل شيء يذهب إلى مكان واحد، كان كلّ شيء من التراب وكلّ شيء إلى التراب يعود» (سفر الجامعة، الإصحاح3: 20).

ويمكـن القول بأن رواية خلـق زوج النبي آدم من ضعله «فأوقع الربُّ الإله سـباتاً عميقاً على الإنسـان فنام. فأخذ إحدى أضلاعه وسـدّ مكانها بلحم. وبنى الربُّ الإلـه الضلع التي أخذها من الإنسان امرأةً فأتى بها الإنسـانَ» (سفر التكوين، الإصحاح2: 21-22) دليلٌ مستقل يعارض النظريَّة؛ فالنظريَّة لا تقبل أن يكون هناك إنسان هو الذكر على وجه الأرض، ثمّ بعد ذلك خُلقت

الأنثـى في وقت لاحق على صورتها الحالية، وذلك لأنّها تحتاج أن تطوي مراحل عديدة لتصل إلى ما هي عليه.

3. الآيات التي تتحدَّث عن مراحل محدّدة بين أول إنسان ومن جاء بعده:

مـن التحديات المُهمَّة أمام اليهود ليقبلوا بنظريَّة التطـوُّر فيما لو صحّت، هي النصوص التي تتحدّث عن مراحل محدّدة ودقيقة جداً بين الأنبياء والصالحين، فقد ورد في التوراة «هذا كتاب سـلالة آدم: يومَ خلقَ الله الإنسان، على مثال الله صنعه [...] وعاش آدم مئةً وثلاثين سنة وولدَ ولداً على مثاله كصورته وسـمّاه شـيتاً [...] وعاش شيتٌ مئةً وخمس سـنين وولد أنوش [...] وعاش أنوش تسعين سنةً وولد قينان [...]» (راجع: سفر التكوين الإصحاح 5؛ أواخر الإصحاح 9 و11.). ومن المسـتبعد أن نذهب إلى القول بأنّ السـنوات هنا للدلالة على كثرةٍ، كأن نذهب للقول بأنّ السنوات عند الله, سبحانه, كمقدار كبيرٍ ممّا نعدّ وذلك لعدّة أسباب:

1 - إنَّ الأرقام التي تدلُّ على الكثرة لا تكون تفصيليَّة كـ130 و105، بل تكون أرقاماً مسـتعملة عادةً للدلالة على الكثرة، هذا مع العلم أنَّ التوراة استعمل الكثير من الأرقام عندما تعرض لحياة سلسلة آباء النبي إبراهيم (ع).

2 - إنَّ التفصيل الكثير في ذكر المُدَدِ بين الأنبياء، ظاهر إلى حدّ الاطمئنان بأن صاحب الكتاب يريد أن يخبرنا بالمراحل الفعليَّة بين كلّ منهم.

3 - بعـد أنْ يذكر العهد القديم المُدَّة الفاصلة بين كل نبيّ وآخر، يعود ويخبرنا كم عاش النبيّ الأب «وعاش آدم مئةً وثلاثين سـنة، وولد ولداً على كصورته وسمّاه شيتاً. وعاش آدم بعدما ولد شـيتاً، ثماني مئة سنة فولد بنين وبنات. فكانت جميع أيّام آدم التي عاشها تسع مئة سنةٍ وثلاثين سـنة، ومات» (سفر التكوين، الإصحاح5: 3-5). ونحن نعلم أن آدم لم يعش 900 سنة ونيّفًا من سنين السماء.

ثانياً: الإسلام

ذكر القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدّث عن خلق الإنسان الأوَّل من التراب ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَـانِ مِنْ طِينٍ**﴾ (السـجدة 7) و﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ**﴾ (الأنعام: 2)

و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: 12)[1]، ويظهر من هذه الآيات الكريمة أنَّ الإنسان خُلق من الطين وبشكل دفعيّ، ولا يظهر من الآيات التي تتحدَّث عن الخلق بأن الإنسان مرّ بأطوار[2] قبل أن يصل إلى هذه المرحلة التي هو عليها الآن، وقد وردنا عن رسول الله (ص) «أَلاَ إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ وَ آدَمَ مِنْ تُرَاب» (الصدوق، من لا يحضره الفقيه، 4: 363) ومن الصعب حمل مثل هذه الرواية على أنّ النبي (ص) يخبرنا بأنّ أصل آدم من التراب.

أضف إلى ذلك وجود آيات كريمة تساعد بشدّة على حمل النصوص السابقة على الخلق الدفعيّ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: 59)، فالعلامة الطبطبائي يشير إلى نكتة مهمَّة في المقام حيث يقول: «فإن الآية نزلت جواباً عن احتجاج النصارى على بنوَّة عيسى بأنه ولد من غير أب بشريٍّ -ولا ولد إلا بوالد- فأبوه هو الله, سبحانه؛ فرد في الآية بما محصله أن صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم الأرض بغير والد يولِد فلم لا يقولون بأن آدم ابن الله؟ ولو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكونين من النطف إلى الأرض كان المعنى: أن صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلقته كسائر الناس إلى الأرض، ومن المعلوم أن لا خصوصيَّة لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ ويقاس إليه عيسى، فيفسد معنى الآية في نفسه ومن حيث الاحتجاج به على النصارى» (الطَّباطبائيّ، 16: 256-257)، ومن ثَمَّ فظهور الآيات الكريمة على الخلق الدفعيّ كبير جداً بحيث يصعب كثيراً أن نرفع اليد عنه.

أما استدلال بعضهم بالآية الكريمة ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: 1) على أنّ زوج آدم خُلقت من ضلعه ومن ثَمَّ لم يحصل التطوُّر، فهو محلّ إشكال، لأنَّ مراجعة تفسير هذه الآية لا يوصلنا إلى أن زوج النبي تكونت من ضلعه، بل قد يكون المقصود أنّها خُلقت على شاكلته عندما عبّر سبحانه «وخلق منها زوجها»،

1 - انظر أيضاً؛ السجدة: 7 والصافات: 11 وص: 71 وص: 76 وآل عمران: 49 والمائدة: 110 والإسراء: 61 والسجدة: 7-8 والأعراف: 12.

2 - لا بأس بمراجعة معنى الآية الكريمة «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا» (نوح: 14)، فهي أجنبية عن معنى التطور عند الحديث عن النظرية.

هـذا, والروايـات الشريفة التي تتحدّث عن خلق زوج النبي منه تحتاج إلى بحثٍ دقيقٍ في سـندها وظـروف صدورها ودلالتها في المقام، لأنّه يظهر منها التعارض البدوي؛ فقد ورد عن الإمام الباقر (ع): «إِنَّ اللـه, تَعَـالىٰ, خَلَـقَ آدَمَ مِنَ الْمَاءِ الْعَـذْبِ، وَ خَلَقَ زَوْجَتَهُ مِنْ سِـنْخِه، فَبَرَأَهَا مِنْ أَسْـفَلِ أَضْلَاعِـه» (الكليني، 10: 880) وبعد أن حكم الأمير على امرأة بأنّها رجلٌ فسـأله زوجها السـابق: «فَقَـالَ الزَّوْجُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنـينَ امْرَأَتِي وَ ابْنَةُ عَمِّي أَلْحَقْتَهَا بِالرِّجَالِ مِمَّـنْ أَخَذْتَ هَذِه الْقَضِيَّة قَالَ «إِنِّي وَرِثْتُهَـا مِنْ أَبِي آدَمَ وَ أُمِّي حَوَّاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ آدَمَ وَ أَضْلَاعُ الرِّجَالِ أَقَلُّ مِنْ أَضْلَاعِ النِّسَـاءِ بِضِلْـعٍ وَ عِـدَّةُ أَضْلَاعِهَا أَضْلَاعُ رَجُلٍ» وَ أَمَـرَ بِهِمْ فَأُخْرِجُوا» (الطـوسي، 9: 354). ولدينا روايات أخرى تقول بأنّ خلق زوج النبي لم يكن من ضلعه «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ حَوَّاءَ فَقَالَ: أَيَّ شَيْءٍ يَقُولُونَ هَذَا الْخَلْقُ قُلْتُ: يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدَمَ، فَقَالَ: كَذَبُوا أَكَانَ اللَّهُ يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْلُقَهَا مِنْ غَيْرِ ضِلْعِه فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ, صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهَا فَقَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ آبَائِه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ, صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِـه: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ طِـينٍ فَخَلَطَهَا بِيَمِينِه وَ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ فَخَلَقَ مِنْهَا آدَمَ وَ فَضَلَتْ فَضْلَةٌ مِنَ الطِّينِ فَخَلَقَ مِنْهَا حَوَّاءَ» (العياشي، 1: 216) وقد ورد ما يشبهه في (من لا يحضره الفقيه),جلد 3 ص379. ومن ثَمَّ لا يمكننا الاستدلال بالآية الكريمة في المقام.

أما الروايات التي تتحدّث عن أقوام قبل قومنا، وعن ألف ألف آدم فمستفيضة؛ ولكن لا بدّ من التمييز بـين القول بوجود آدميّين قبلنا فقط، وبين القول بأنّ آدمنا يرجع إلى أحد أولئك الآدميّين وأنّه انتقل بالتطوُّر إلى هذه الصورة التي نحن عليها. وبعض الروايات الشريفة التي تتحدث عن الأقوام الذين سـبقونا تُظهر أنّ أولئك القوم اندثروا قبل قومنا، وعليه يصبح الكلام عن الآدميّين السابقين غير مرتبط بنظريّة التطوُّر بأي ارتباط: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد) قَالَ يَا جَابِرُ تَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ, عَزَّ وَ جَلَّ, إِذَا أَفْنَى هَذَا الْخَلْقَ وَ هَذَا الْعَالَمَ وَ سَـكَنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ جَدَّدَ اللَّهُ عَالَماً غَيْرَ هَذَا الْعَالَمِ وَ جَدَّدَ خَلْقاً مِنْ غَيْرِ فُحُولَةٍ وَ لاَ إِنَاث يَعْبُدُونَهُ وَ يُوَحِّدُونَهُ وَ خَلَقَ لَهُمْ أَرْضاً غَيْرَ هَذِه الْأَرْضِ تَحْمِلُهُمْ وَ سَمَاءً غَيْرَ هَذِه السَّمَاءِ تُظِلُّهُمْ [...] بَلَى وَ اللَّهِ لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ أَلْفَ أَلْفِ عَالَمٍ وَ أَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَ أُولَئِكَ الْآدَمِيِّينَ» (الصدوق، التوحيد، 277، الخصال، 2: 652)، فالرواية الشريفة كالنص على عدم ارتباط آدمنا بأولئك الآدميّين فقد قال الإمام:

- أفنى هذا الخلق وهذا العالم.
- جدَّد الله عالماً غير هذا العالم.
- من غير فحولة ولا إناث.
- خلق أرضاً غير هذه الأرض.

وفي رواية أخرى تؤكّد هذا المعنى: «لَقَدْ خَلَقَ اَللَّهُ فِي اَلْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا سَبْعَةَ عَالَمِينَ لَيْسَ هُمْ مِنْ وُلْدِ آدَمَ، خَلَقَهُمْ مِنْ أَدِيمِ اَلْأَرْضِ فَأَسْكَنُوهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ مَعَ عَالَمِه، ثُمَّ خَلَقَ اَللَّهُ آدَمَ أَبَا هَذَا اَلْبَشَرِ وَ خَلَقَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْهُ، [...] [بَلَى وَ اَللَّهِ لَيَخْلُقَنَّ خَلْقاً مِنْ غَيْرِ فُحُولَةٍ وَ لاَ إِنَاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَ يُوَحِّدُونَهُ] وَ يُعَظِّمُونَهُ وَ يَخْلُقُ لَهُمْ أَرْضاً تَحْمِلُهُمْ وَ سَمَاءً تُظِلُّهُمْ أَ لَيْسَ اَللَّهُ يَقُولُ: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ اَلْأَرْضُ غَيْرَ اَلْأَرْضِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ﴾** وَ قَالَ اَللَّهُ: **﴿أَفَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ الأَوَّل بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**» (الصدوق، الخصال، 2: 359، العياشي، 2: 238).

وقد ورد في كتب أهل السنّة ما يفيد الخلق الدفعيّ لآدم من تراب فعن رَسُولُ اللَّه (ص): «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ؛ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَ الْأَبْيَضُ وَ الْأَسْوَدُ وَ بَيْنَ ذَلِكَ، وَ السَّهْلُ وَ الْحَزْنُ، وَ الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ» (سليمان بن الأشعث، 4: 2004).

يظهر أنَّ الأديان التوحيديَّة جميعاً تتبنّى الخلق الدفعيّ للإنسان مع فارق أساسي وجوهري، وهو في الدلالة؛ فالإسلام يقول بالخلق الدفعيّ وظاهر نصوصه قويّ بهذا المعنى، أما اليهوديَّة والنصرانية فقد يُقال بأنّها تنصّ على الخلق الدفعيّ بحسب ما تمّ ذكره. وسيظهر أثر ذلك في فيما يلي, إن شاء الله.

■ المنهج الصحيح في التعامل مع نظريَّة التطوُّر

الملحدون واللاأدريّون وكلّ من ينفي وجود الإله من خلال هذه النظريَّة العلميَّة، ينطلقون من النقطة التالية[1]: النظريَّة تعارض الرواية الدِّينيّة لخلق الكائنات الحيّة ولا سيما الإنسان. ومن ثَمَّ فهم يأخذون كلام المتديِّنين حول خلق الإنسان ثم يحاكمونه وفق ما انتهت إليه استنتاجاتهم العلميَّة، ومن ثَمَّ لو خالفت الرواية الدِّينيّة استنتاجاتهم حكموا على الديانات بالتخلُّف وبأنّها موضوعة لا أصل لها.

1 - يمكننا النقاش بطرق أخرى أهمّها ضرب دليل النظم، ولكن ذلك لا ينفي وجود الإله حتى لو تمّ؛ لأن الأدلة الأخرى تبقى قائمة.

والخطير في المقام هو الدعاوى التي يطلقها بعض المتديِّنين وبعض علماء الدِّين، ويحمّلونها للدين، فيضعون الدِّين في مقابل النظريَّة، فمتى ما ثبت أي جزء منها بطل الدِّين وظهر كالضعيف الـذي يحارب النظريَّة العلميَّة. ومن ثَمَّ عندما تثبت النظريَّة العلميَّة سـيأتي هذا الدِّين الضعيف ليقبـل بها على مضض خوفاً من تفلُّت المؤمنـين وابتعادهم عنه. وقبل الخوض في ذكر نماذج خاضت في هذا الميدان لا بد لنا من توضيح منهجنا في التعاطي مع مثل هذه القضايا:

■ منهجنا في التعاطي مع النص الدِّين

- القرآن الكريم قطعيُّ الصدور ولا نقاش في ذلك.
- يوجد في القرآن الكريم نصوص قطعيَّة الدلالة -وهي قليلة- وأخرى ظنّية الدلالة -وهي الأكثر-.
- صحيـح أن معظم القـرآن ظنيُّ الدلالة، ولكننا نعتمد على الظهـور. ونبحث ذلك في علم الأصول وحتى في علوم القرآن، ونطلق على البحث اسم «حجية الظهور» (الصدر، 122).
- للقطع حجيَّة ذاتيَّة (الصدر، 19-20) لأنَّه يفيد العلم ولا يمكن سلب الحجيَّة عنه، ولا حاجة للنقل لنستدل على حجيته (الصدر، 22).
- لا يمكن أنْ يتعارض قطعان بما هما كاشفان عن الخارج، ولو حصل فإننا نعلم أنَّ أحدهَّما خاطئ نتيجة شبهة فنبحث عنها.
- لا يمكن أنْ يتعارض نصّ قرآني مع دليل قطعيٍّ سـواء أكان علمياً[1] أم عقليّاً؛ وهذا تفريع على النقطة السابقة.

فالنتيجة: إذا تعارضت حقيقة علميَّة قطعيَّة مع آية كريمة فلا بدّ أنْ نؤوِّل الآية بما يتوافق مع هذه الحقيقة[2]، نظير ما نفعل مع القواعد العقليّة القطعيَّة، وإليكم مثالاً لتوضيح ذلك:

---

1 - ليس من شـأن هذا البحث التمييز بين القطع المستفاد من الدليل العقلي وهو القطع اليقيني 100% الذي لا يشـوبه أي احتمال للمخالفة، وبين القطع العلمي القائم حقيقةً على الاسـتقراء ومن ثَمَّ قد يُقال بأنّه مهما بلغ فإنّه لا يفيد سـوى الظن القوي في المقام. فالمقصود من القطع هنا هو الاحتمال الكبير الذي يغفل الذهن معه عن الاحتمال الصغير المخالف له؛ وإن أردت فسمّه اطمئنان.

2 - يقـول الشـهيد الصدر: «فإذا تعارض الدليل العقـلي مع دليل ما فإن كان الدليل العقـلي قطعياً قُدّم على معارضه على أي حال، لأنه يقتضي القطع بخطأ المعارض...» (الصدر، 122).

مثال توضيحيٌّ:

العقل يحكم بأنَّ الله, سبحانه وتعالى, بسيط غير مركَّب وليس له جسم، لأنَّ التركيب نقص، وتعالى الله, سبحانه, عن النقص. فإنّ أي آية قرآنيَّة تكون معارضة لهذه القاعدة العقليّة نؤوّلها مباشرة، فعندما نقرأ ﴿**جاء ربك والملائكة صفاً صفاً**﴾ (الفجر: 22)، أو عندما نقرأ ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ (الفتح: 10) فإنَّنا لا نواجه أيَّ مشكلة في المقام لأنَّنا لا نحتمل أن يكون مقصود الباري المجيء الجسماني؛ بل إنّنا نؤوّل[1] الآية الكريمة ونحمل المعنى على القدرة أو على أيِّ معنى آخر.

هذه الطريقة من التعامل مع النصِّ الدِّيني مما تجمع عليه الإماميَّة تقريباً، وبنفس المنهج نتعامل مع الحقائق العلميَّة -فيما لو كانت قطعية-، فلو ثبتت إحدى النظريَّات فسيكون أمامنا خمسة احتمالات:

1 - ألَّا نجد أيَّ نصٍّ يعارضها لا في الكتاب الكريم ولا في الروايات، وهنا لا مشكلة في المقام.

2 - أنْ نجد نصاً قطعيّ الصدور أو ظنيَّ الصدور، يكون قطعيّ الدلالة أو ظني الدلالة يوافق هذه النظريَّة القطعية، وهنا لا مشكلة أيضاً، بل يكون مؤيّدا لصحة هذه النظريَّة.

3 - أنْ نجد نصَّاً ظني الصدور، قطعي الدلالة يعارض النظريَّة. فحينئذٍنُعرض عن هذا النصِّ؛ لأنه لا مجال لتأويله.

4 - أنْ نجد نصَّاً قطعيَّ الصدور وقطعيَّ الدلالة يعارض النظريَّة، وهذا احتمال غير ممكن إلَّا مع وجود شبهة مستحكمة. فلو حصل هذا الاحتمال نذهب لنزيل الشبهة.

5 - أنْ نجد نصّاً قطعيَّ الصدور أو ظنِّيَّه ، ولكنه ظنيُّ الدلالة ويعارض النظريَّة.

وفي الحالة الخامسة و هي موضوع بحثنا سوف نذهب إلى تأويل الآية أو الرواية، خاصَّة في حال كانت قطعيَّة الصدور -لأنَّه لا يمكننا الاستهانة بهذا النوع من النصوص- فلا مناص من التأويل في هذه الحالة.

وهذا الكلام لا يختص بالدليل العقلي، بل بكل ما يُقطع بصحته حتى لو كان دليلاً علمياً لوحدة الملاك في الترجيح، وهو كاشفية القطع.

1 - هناك بحث -لن نخوض فيه- حول التأويل في مثل هذه الآيات، إذ يقول البعض: إننا لسنا بحاجة للتأويل، بل الفهم العرفي للعرب لمثل هذه الآيات يتوجّه مباشرة إلى معنى القدرة مثلاً، فالآيات ظاهرة بهذا المعنى.

وفي معـرض التطبيق للمبادئ التي مرّت معنا نقول بأنّ الآيات الكريمة التي تتحدث عن الخلق ظاهرة بالخلق الدفعيّ، فمع تعارضها مع نظريَّة التطوُّر -بجزئها الذي يتحدّث عن تطور الإنسان من مخلوق آخر- فنحن أمام احتمالين: إذا كانت هذه النظريَّة قطعية فنؤوّل النص الدِّينيّ، أما إذا لم تكن قطعيَّة فنحافظ على الأخذ بالظهور ريثما يتبيّن صواب أو خطأ هذه النظريَّة. وبعد أن اتَّضح منهجنا في التعاطي مع النصّ الدِّينيّ لا بد من استعراض أراء بعض العلماء الذين خاضوا في هذه النظريَّة:

■ آراء بعض العلماء

1. الشهيد مطهريّ

نسـتعرض هنا كلاماً للشهيد مرتضى مطهريّ لأنَّه يدلّنا على المنهج الصحيح والعملي الدقيق البعيد عن الانفعالات:

«وقد حاول البعض الدفاع عن التوحيد والاعتقاد بالله، وذلك بأنهم أنكروا نظريَّة تبدّل الأنواع، فقالـوا: بأنَّ الأنواع ثابتة ولخلقها بداية زمنيَّة وفي المقابل حاول المادِّيّون إثبات مُدَّعاهم من أنَّ الأنـواع تتبدَّل، إذاً لا وجود لله، هذا مع أن داروين الذي هو عالم طبيعيٌّ لم يكن مادِّيّاً، بل كان معتقداً بوجود الله والدِّين، ولم يرد أبداً أنْ يسـتنتج من نظريَّته مثل هذا الاسـتنتاج -عدم وجود الله- ولكن وللأسف جاءت جماعات من أتباع التوحيد وآخرون منكرون له، فأمسك بعض بطرف نظريَّة ثبات الأنواع وربطها بالتوحيد، وأمسك البعض الآخر بطرف نظريَّة تبدل الأنواع وربطوها بإنـكار وجود الله وهم المادِّيّون، فصارت نظريَّة داروين بذلك مئـة بالمئة نظريَّة مادِّيّة، وهكذا حقَّقت نظريَّة تبدّل الأنواع مكسباً من مكاسب المادِّيّة وانتكاسة الموحدين» (مطهري، 212).

ويمكن أن نستنتج من كلام المطهريّ فكرتين رئيسيَّتين:

● إذ أردنـا أنْ ندافع عن الدِّين لا بدَّ لنـا أنْ نكون علميِّين من جهة، وأن نفهم نظريَّات الطرف المقابل من جهة أخرى. ويجب ألَّا نصدر أحكاماً سابقة، كأنْ نقول: إنَّ النظريَّة باطلة, وإلا فإنَّ الدِّيـن في ورطة؛ لأنَّ هذا الأمر غير صحيح، فحتى لو صحت النظريَّة فليسـت بالأمر الخطير. نعم؛ إنَّ فهمنا للكثير من الآيات والروايات الشريفة سيتغيّر، ولكن ضمن القواعد المعمول بها.

● للمطهريّ كلام أوضح في المقام إذ يقول: «لا توجد أيُّ علاقة بين أنْ يعتقد شخص بوجود

الله وبين قوله بقابليَّة الأنواع للتغير» (مطهري، 212).

وهــذه الطريقة الهادئة في معالجــة القضايا الفكريَّة هي التي تترك أثــراً في الأمة، وعلى نفس الطريقة كان الأســتاذ وأعني العلامة الطبطبائيَّ حين تكلم عن نظريَّة التطوُّر تحت عنوان (كلام في كينونة الإنسان الأوَّل) إذ قال:

2. العلامة الطبطبائيّ

خصصّ العلامة الطبطبائيّ مبحثين كاملين للحديث عن هذه النظريَّة الأوَّل في تفسير الآية الأوْلى من سورة النساء, والثاني في تفسير الآيات الأوَّل من سورة السجدة؛ وقد أجاد كثيراً حيث قال:

« ... أنَّ الآيــات القرآنيَّة ظاهرة ظهوراً قريباً من الصراحة في أنَّ البشر الموجودين اليوم ينتهون بالتناسل إلى زوج أيْ رجل وامرأة بعينهما (...) وهما غير مكوَّنين من أب وأم, بل مخلوقان من تراب أو طين (...) فهذا هو الذي تفيده الآيات ظهوراً معتدّاً به وإنْ لم تكن نصاً صريحة لا تقبل التأويل ولا المسألة من ضروريات الدِّين، نعم، يمكن عد انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضروريّاً من القرآن، وأما أنَّ آدم هذا هل أريدَ به آدم النوعيُّ...» (الطَّباطبائيّ، 16: 261).

وتلخيص كلام العلامة:

● الآيــات ظاهرة بأنَّ الخلق دفعيٌّ، بل إنّ ظهورها قويٌّ لدرجة تجعل من غير الســهل لقارئ القرآن أنْ يتنازل عنه، ولكنّ هذا الظهور لم يصل إلى مرتبة النص[1]. وهذا يعني أننا نتمسَّك بفكرة الخلق الدفعيّ ما لم يأت دليل قطعيٌّ منافٍ يحرفنا عن الأخذ بالظهور.

● اعتبر أنَّ القرآن يخبرنا -ظاهراً- بأن جميع البشر الموجودين اليوم يعودون إلى آدم وزوجه أبويْ البشر.

وهذا والعلامة عندما تعرض لهذا البحث في ســورة النساء استبعد حصول التطوُّر بين الأنواع من جهة، واستبعد بشدة أنْ يكون آدم قد تطوَّر من مخلوق قبله (الطَّباطبائيّ، 4: 148) أو أن يكون قد أتى من إنسان قبله.

يمكننــا الاعتماد على كلام العلاّمة في تبيين المنهج الســليم: فالقارئ يرى بوضوح مدى ميل العلامة إلى نظريَّة الخلق الدفعيّ، ومدى استبعاده الخلق التطوُّري، ولكنه يسير بِخُطىً ثابتة علميَّة

1 - نقصد بالنص هنا المعنى الاصطلاحي، فالمقصود: ما يقابل الظهور وبالتالي ما لا يقبل التأويل.

دقيقة؛ إذ إنّه لم يقل باستحالة حصول التطوُّر، بل قال: طالما أنّ الدليل لم يقم على تطوّر الإنسان مـن نوع آخر، وطالما أنَّ ظهور القرآن بالخلق الدفعيّ قد بلغ من القوّة ما بلغ؛ فمن غير المقبول التنازل عن هذا الظهور القويّ من أجل احتمال لم يقم الدليل عليه. ويكون بذلك قد طبّق القواعد التي ذكرناها، فنحن لا نتنازل عن الظهور إلَّا إذا قام دليلٌ علميٌّ أو عقليٌّ قطعيٌّ على خلافه.

الخاتمة

أخذت نظريَّة التطوُّر حيّزاً واسعاً من النقاش في القرن العشرين، وقد يُقال بأنّها تربّعت على عرش النظريَّـات العلميَّـة الإحيائيَّة مُدَّة لا بأس بها، ولم يعد النقاش في هـذه النظريَّة حكراً على علماء الأحياء والطبيعة، بل إنّها قد دخلت لتأخذ حيّزاً في العديد من المجامع العلميَّة ومنها الحَوْزويَّة.

وعلى المتصدّي للإجابة عن الشبهات والطروحات المستفادة من مثل هذه النظريَّات أنْ يتحلّى بمعرفة معمّقة بها، وإلا فإنّ عمله سـيذهب هباءً منثوراً، أو سـيكون له أثر سلبيّ على التدين في المجتمعات، وهذا ما حصل على نحوٍ واسع في أوروبَّا وفي بعض مناطقنا الإسلاميّة.

حـاول هذا البحث أنْ يوضـح النظريَّة بالشـكل المطلوب وحاول أن يحرر محـلّ النزاع، فلا يبقى القـارئ عالقاً بين أن يرفض نظريَّة التطوُّر بالكلّية وبين أن يقبلها كلّها، وحاول توضيح رأي الأديان المختلفة فيما خصّ خلق الإنسـان الأوَّل، ومن ثَـمَّ التصويب على مكمن التعارض -لو تمت النظريَّة ببعديها -، وأيضاً حاول الإضاءة على المنهج العلمي في التعامل معه. هذا ومدرسة أهـل البيت متينة ومنهجيّة وعلميّة لا يحتاج الباحث معهـا إلا أنْ يطبّق ضوابطها والمنهج الذي رسـمته لنا؛ لكي يصل إلى حلِّ جميع الشبهات التي تطرأ، و«قَلِيلُ الْحَقِّ يَكْفِي عَنْ كَثِيرِ الْبَاطِلِ» (الكليني، 1: 422).

نعم, هذا لا يعني أبداً القبول بكلِّ ما يقوله الآخر، فعندما ندعو لعدم رفض المعطيات العلميَّة بسرعة فهذا لا يعني أن نقبل بالأفكار لمجرَّد كونها علمية تجريبيَّة، ففي أحيان كثيرةٍ يكون هناك تخبّط كبير في بعض الميادين التَّجريبيّة، فرحم الله الشـيخ مغنية عندما قال «قد يُظن أنَّ علماء الطبيعة لا يخطئون في أحكامهم لأنّهم يعتمدون على المشـاهدة، وعلى أجهزة بلغت الغاية في الضبط والدقة، ولكن علماء الطبيعة أنفسهم اعترفوا...» (مغنية، 931).

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- العهد القديم.
- العهد الجديد.
- الكليني، محمد بن يعقوب، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، لا ط، 1430هـ.
- الصدوق، محمد بن بابويه القمي، التوحيد، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميَّة في قم المقدسة، لا ط، 1416هـ.
- الصدوق، محمد بن بابويه القمي، الخصال، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميَّة في قم المقدسة، لا ط، 1416هـ.
- الصدوق، محمد بن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميَّة في قم المقدسة، ط2، 1363ش.
- روبير، أوديل، الاستنساخ والكائنات المعدلة وراثياً، زينة دهيبي، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، ط1، 1436ه، 2014م.
- داروين، تشارلز، أصل الأنواع، مجدي محمود المليجي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط3، 2014.
- دوكينز، ريتشارد، صانع الساعات الأعمى، مصطفى إبراهيم فهمي، دار العين للنشر، مصر، ط2، 2002.
- الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول، الحلقة الثانية، دار المرتضى، بيروت، ط 1، 2017.
- السّبْحانيّ، جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، قم، ط4، 1389هـ.
- السّبْحانيّ، جعفر، القصص القرآنية، دار جواد الأئمة، بيروت، ط1، سنة 2007-1428.
- الحسن، أحمد، وهم الإلحاد، شركة نجمة الصباح للطباعة، بغداد، ط1، 2013.
- **المدرسي، هادي، عن الإنسان والمادِّيّة الداروينيَّة، دار التعارف للمطبوعات، ط1، 1398 هـ 1978م.**

■ مطهري، مرتضى، التوحيد، إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط2، 2009.
■ الطبطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميَّة في قم المقدسة، لا ط، للمطبوعات، بيروت، لا ت.
■ مغنية، محمد جواد، فلسفات إسلامية، دار الجواد، بيروت، لا ط، 1993.